



كالحجارة أو أشدّ قسوة ما لا يظهر قبل ذلك ، فعند سماع الايات يستحکم لكل من القبيلتين ما هو مركز في جبلته من الصفات - إن خيراً فخير و إن شراً فشرّ .  
كما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿قد جائكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه و من عمى فعليها و ما أنا عليكم بحفيظ﴾ (الأنعام ١٠٤: ٦) و قوله تعالى : ﴿و أن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه و من ضلّ فقلّ إنّما أنا من المنذرين﴾ (النمل ٢٧: ٩٢) فإن فيها إشارة الى نور القرآن يظهر و يكشف جوهر الهداية و الضلالة في معدن قلب الانسان السعيد والشقي ، كما يظهر و يكشف ضوء الشمس الذهب و الحديد في المعادن .  
و كذا قوله تعالى : ﴿يضلّ به كثيراً و يهدى به كثيراً و ما يضلّ به إلّا الفاسقين﴾ (البقرة ٢٦: ٢) و آيات كثيرة في هذا المعنى .

و قال عليه و آله الصلوة و السلام : «الناس معادن كمعادن الذهب و الفضة»<sup>١</sup> .

### المقالة السابعة عشرة

في معنى قوله سبحانه : ﴿يخرجهم من الظلمات الى النور﴾

و فيه معارج :

#### المعراج الأوّل

في تحقيق الآية

إن الله سبحانه لما ذكرنا أنه يحبّ الذين آمنوا و متولى ايمانهم و معينهم في قبول الهداية و مكمل قلوبهم بكمال العرفان المعبر عنه بالايمان ، أراد أن يبيّن كيفية هذا التكميل و الاستكمال و لمية هذا الفعل و الانفعال ، فأشار الى أن كفيته بأن يخرجهم من الظلمات الخلقية الى النور الهداية ، حتى اهتدوا و آمنوا ، فإن كلّ واحد من الناس بحسب أصل طينته و هيولانيته من سنخ الظلمات - كالجسمية - و الطبيعة و الحيوانية - التي مقتضى ذاتها أفعال توجب الطرد و البعد عن رحمة الله الخاصة الموجبة لدخول الجنة ، و إنّما التفاوت بحسب تفاوت الأرواح و القلوب في الكدورة و الصفاء الفطريتين ، ثمّ بحسب العقائد و الأعمال .  
و يجوز أن يحمل قوله تعالى : ﴿و إن منكم إلّا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ (مريم ١٩: ٧١) على ما يستوجبه الانسان بحسب ما يقتضيه طينة الجسمانية الظلمانية .



و يحتمل أن يأوّل الظلمات بالأوصاف النفسانيّة كالشهوة و الغضب و الوهم قبل أن يسخرها القلب و يستعملها فيما خلقت لأجله ، و يستخدمها في طاعة الله على وجه التعديل و التوسيط ، فإن وجودها لا على وجه المذكور ظلمة و وبال على النفس الآدميّة توجب لها الاستحقاق لعذاب الله بالجحيم و النار و الموت و الحرمان عن نعيم الأبرار ، كما يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً ﴾ (الأنعام: ٦) : ١٢٢ . فثبت أنّه تعالى أخرجهم ذلك اليوم باصابة رشاشة النور - كما ذكر في الحديث المشهور - من ظلمات الطينة حتى اهتدوا اليوم فأمنوا ، و لولا محبّته إيّاهم و تنويره قلوبهم و مزيد العناية و توليته لهم بالنصرة و المعنويّة فضلاً منه و رحمة لماً آمنوا و كانوا من الكافرين ، كقوله تعالى : ﴿ و لولا فضل الله عليكم و رحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ (البقرة: ٢) : ٦٤ . و نظائره من الآيات الدالة على مزيد فضل الله لعباده الصالحين .

فما أشدّ سخافة عقل من أنكر مزيد محبة الله و عنايته للمحبوبين المقربين من الأنبياء والمرسلين و الأبدال الواصلين و يرى أنّ التوفيق و الهداية و المحبة من قبله تعالى مساوية النسبة الى أفضل خلق الله و أحبهم اليه كخاتم المرسلين عليه و آله أفضل صلوات المصلين و أزدل خلقه و أبغضهم لديه - كالشيطان اللعين؟! بدون تفاوت ذاتهم في ابتداء الفطرة بحسب صفاء جوهر القلب و ظلمته و صفائه و كدورته ، اللذان هما من مظاهر قهره تعالى و رأفته و آثار مقتته و رحمته مرّ كما ذكره .

## المعراج الثاني

في بيان طوائف المؤمنين في الايمان و كيفية اخراج كل طائفة من الظلمة الى النور ، و أنّ مراتب الايمان متفاوتة

المؤمنون فيه على ثلاث مراتب لكونهم ثلاث طوائف : عوام المؤمنين و خواصهم ، و خواص خواصهم .

فالعوام يخرجهم الله من ظلمات الكفر و الضلالة الى نور الايمان و الهداية كقوله تعالى : ﴿ و الذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم ﴾ (محمد: ٤٧) : ١٧ .

١ . «إنّ الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثمّ رشّ عليهم من نوره» ، تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ١٧٨ ؛ تفسير ابن عربي ، ج ١ ، ص ٧٧ .



و الخواص يخرجهم من ظلمات الصفات النفسانية و الجسمانية الى نور الروحانية الربانية لقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا و تطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ (الرعد: ١٣) و معرفته و اطمينان القلب بالذكر و المعرفة لم يكن إلّا بعد تصفيته عن الصفات النفسانية و تحليته بالصفات الروحانية، و إلّا فمن صفاته الاطمينان بالحياة الدنيا و شهواتها، كقوله تعالى: ﴿رضوا بالحياة الدنيا و اطمأنوا بها﴾ (يونس: ١٠) و (٧).

فلما استولى سلطان المعرفة على نفس المؤمن و قلبه تنورت النفس بنور الذكر و خرجت عن ظلمة صفاتها فتبدلت أخلاقها الذميمة بالحميدة، فيكون اطمينانها مع العلوم الالهية و ذكر الله بدل ما كان مع الدنيا، فيستحق حينئذ أن يخرجها الله تعالى بخطاب: ﴿يا أيّتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك﴾ من ظلمات الصفات الغير المرضية الى نور صفة ﴿راضية مرضية فادخلي في عبادي﴾ أي مقام خواص عبادي ﴿و ادخلي جنتي﴾ (الفجر: ٢٨) أي المخصوصة المشرفة باضافتها اليّ، فهي خاصة لخواص عبادي .

و خواص الخواص يخرجهم من ظلمات حدوث الخلقة الروحانية بفنائهم عن وجودهم الى نور تجلّى صفة التديم لهم ليبقيهم به، كقوله تعالى: ﴿إنّهم فتية آمنوا بربّهم و زناهم هدى﴾ و ربطنا على قلوبهم إذ قاموا ﴿الكهف: ١٨﴾ - نسبهم الى الفتوة لِمَا خطرُوا بأرواحهم في طلب الحقّ و آمنوا بالله و كفروا بطاغوت دقيانوس .

فلما تقربوا الى الله تعالى بقدّم الفتوة، تقرب اليهم بمزيد العناية، قال: ﴿و زناهم هدى﴾ تحقيقاً لقوله ﷻ: «من قرّبني شبراً قرّبته ذراعاً» .

فلما تنوّرت أنفسهم بأنوار أرواحهم اطمأنت الى ذكر الله و أنست به، و استوحشت عن صحبة أهل الدنيا و ما فيها و أحبوا الخلوة مع الله، فقال أكبرهم و شيخهم: ﴿إذا اعزلتموهم و ما يعبدون إلّا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته﴾ (الكهف: ١٨) (١٦) فأووا الى الغار ليخلوا مع الله و يطلبوه .

فاذا قاموا عن وجودهم و بذلوا جهدهم في طلبه و مشوا اليه استقبلهم بجوده هرولة، فبدل أوصافهم بلطافه كما قال: ﴿و ربطنا على قلوبهم﴾ أي أفيناهم عنهم بنا بنشر رحمتنا عليهم، و «النشر» هو الاحياء، فأفناهم عنهم و أبقاهم به، و هو الولاية التي تكرم الله تعالى به خواص عباده، إذ يخرجهم من ظلمات وجودهم الى نور جوده بعد تربيتهم بالرفق، و أنامتهم نومة العروس بعزل الحواس لتصفية القلب و الفراغ بالكلية الى الحق عن الدنيا لئلا

تتأذى نفوسهم بنصب الرياضة و تعب المجاهدة- ﴿وَنَقَلْبَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾  
 أى: من صفات أصحاب الشمال الى صفات أصحاب اليمين، - ﴿وَكَلْبَهُمْ بِأَسْطِ ذِرَاعِيهِ  
 بِالْوَصِيدِ﴾ لايزاحمهم بدواعى الحيوانية حتى تمت مدة تربيتهم فى تبديل أوصاف البشرية  
 بأخلاق الربوبية .



و من علامة هذا المقام - الذى يصل اليه خلص عباد الله الكرام- ما أظهره الله عليهم  
 للاحترام هيبه من آثار صفات جلاله كما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ  
 لَمَلَّتْ مِنْهُمْ رِعْبًا﴾ (الكهف: ١٨: ١٨)، و عداوة علماء الدنيا لأهل الله و العرفاء و غيظهم إنما  
 تنشأ من غاية ما وجدوا من الهيبة و الجلالة فيهم، و لهذا ملؤوا منهم غيظاً كما ملؤوا رعباً .

### المعراج الثالث

فى اتقان القول بأنّ الله تعالى هو المبدأ الفعّال فى اخراج النفوس الانسانية من  
 ظلمات الجهل و الضلال الى نور المعرفة و الكمال، و دفع شبهة المنكرين و  
 الجهال

أجمع المفسرون على أنّ المراد هاهنا من الظلمات و النور هما الكفر و الايمان و  
 مايجرى مجراهما من اللوازم و الملزومات، فتكون الآية صريحة فى أنّ الله تعالى هو الذى  
 أخرج الانسان من مرتبة الكفر - الذى هو ضرب من الجهل - و أدخله الى مرتبة الايمان -  
 الذى هو ضرب من العلم - .

و البرهان العقلى عليه هو أنّ الانسان فى مبدأ الفطرة خالية عن العلوم كلّها، ثمّ قد  
 يصير مؤمناً بالحقائق الربانية، عالماً بالمعالم الالهية، و لاشك أنّ كلّ ما يخرج من القوة  
 الى الفعل بحسب الكمال العلمى فلا بدّ له من سبب يخرج منه اليه، و ذلك السبب إمّا  
 أن يكون كاملاً فى ذاته، عالماً بالفعل من غير قصور، أم لا يكون كذلك، بل كان عالماً  
 كاملاً بعد ما لم يكن .

فان كان الأوّل: فهو إمّا واجب أو ممكن، فان كان واجباً فهو المطلوب و إن كان ممكناً  
 فسببته لتكميل هذا الانسان إمّا بحسب حقيقة ذاته الممكنة، أو من جهة افاضة الواجب  
 تعالى نور العلم و الكمال عليه . و الأوّل محال؛ لأنّ الممكن بحسب ذاته الامكانية عدم  
 محض و قوة صرفة، فاستحال أن يصير سبباً لوجود أو فعلية، فتعيّن الثانى و هو مطلوبنا .



- وإن لم يكن كاملاً كذلك ينقل الكلام الى سببه المخرج إياه من النقص الى الكمال  
ومن القوة الى الفعل، فإما أن تذهب السلسلة الى غير النهاية، أو تدور، أو تنتهي الى  
الواجب تعالى. والشقان باطلان، فتعين الثالث وهو الحق.

فثبت أن الله هو الذى أفاض نور الايمان على النفوس الساذجة الانسانية عنه بحسب  
الفطرة الأصلية، وأخرجه عن ظلمات التعلقات الدنياوية الى نور القرب المعنوى الربانى.  
و أما ذكره جمع من معتزلة المتكلمين من وجهين:

أحدهما: أن الاخراج من الظلمات الى النور عبارة عن نصب الدلائل و ارسال الانبياء  
و انزال الكتب و الحث و الترغيب فى الايمان بأبلغ الوجوه، و التحذير عن الكفر بأقصى  
الوجوه، و قد نسب الله الاضلال الى الصنم فى قوله: ﴿رَبِّ إِنهِنَّ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾  
(ابراهيم: ١٤): ٣٦) لأجل أن للأصنام سببية ما بوجه، فبأن يضاف الاخراج من الظلمات اليه  
تعالى كان اولى.

و الوجه الثانى: أن يحمل «الاجراج من الظلمات الى النور» على أنه تعالى يعدل بهم  
من النار الى الجنة، و هذا أدخل فى الحقيقة؛ لأن ما يقع من ذلك فى الآخرة يكون من  
فعله تعالى - فكأنه فعله، فهو مفسوخ الضبط، مقدوح الحكم، و ليت شعرى بعد أن يكون  
الاجراج عبارة عما ذكره. أفلا يكون بين الناس تفاوت و اختلاف فى المفهوم و القرائح؟  
حتى تفتن بعضهم للدلائل و تلقوها بالقبول، و أوقعت معانيها فى أذهانهم و قرائحهم  
بأبلغ وجه و أكده، بخلاف البعض الآخر حيث تبلدت أذهانهم و تعصت عن قبولها، كما  
قال سبحانه فيهم: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غَشَاوَةً﴾ (البقرة: ٧)  
(٢): ٧) و كذا قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٢): ٦)، و قوله  
مخاطباً للرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٢٨): ٥٦).

فهذا التفاوت فى الفهم و الذكاء بين النفوس على هذه الغاية - التى هى أزيد ممّا بين  
الأرض و السماء، حيث يكون منهم البليد الذى لأفصح أبدأ فى فكره، و منهم شديد الحدس  
قوى الذكاء الى حيث تبلغ نفساً قدسية تعرف الأشياء كما هى فى زمان قليل العدد، أ يكون  
حاصلاً بمجرد التعلم و الكسب من غير تفاوت فى أصل فطرة الجواهر؟ أم بفيض الهى  
قدرى يجعل النفوس مختلفة الذوات صفاءً و كدورة، متفاوتة القلوب لطافة و كثافة، ليناً  
و قساوة؟

لست أشك فى أن أحداً من العقلاء لا ينكر هذا التفاوت الفطرى ضميراً و اعتقاداً. و إن

عاند لساناً و قولاً، فاذا بطل أن يكون ذلك بمجرد الكسب من غير مدخل لعناية الله في حق البعض دون الآخر فقد ثبت أنه تعالى هو الذي خلق الظلمات و النور، و الجنة و النار، و خلق لكل منهما أهلاً كما قال: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر و منكم مؤمن﴾ (التغابن(٦٤): ٢).



فاذا تحقّق هذا المقام بما ذكرناه من الكلام فلنشتغل بحل ما عقده، و الجواب عما ذكره أماً عن الأول فمن وجهين:

أحدهما: أن هذه الاضافة حقيقة في الفعل و مجاز في الحث و الترغيب، و الأصل حمل اللفظ على الحقيقة، على أن جواز اطلاق اللفظ في معنى لا يقتضى ثبوت ذلك المعنى، فلا يصح التعويل عليه في المقاصد الاعتقادية، و قد اشتهر بين المحصلين ان الحقايق غير مقتنصة من الاطلاقات اللغوية أو العرفية.

و ثانيهما: أن هذه الترغيبات إن كانت مؤثرة في ترجيح الداعية صار الراجح و اجباً و المرجوح ممتنعاً، و حيثئذ يبطل قولكم، و إن لم يكن أثر في الترجيح لم يصح تسميتها بالاجراخ.

و أما عن الثاني فمن وجهين ايضاً:

الأول: قال الواقدى: «كل ما كان في القرآن من الظلمات و النور فإنه أراد به الكفر و الايمان، غير قوله تعالى في سورة الانعام: ﴿و جعل الظلمات و النور﴾ (الأنعام(٦): ١)، فإنه يعنى به الليل و النهار. قال: و جعل «الكفر» ظلمة؛ لأنه كالظلمة في المنع من الادراك و جعل الايمان نورا؛ لأنه كالسبب في حصول الادراك.<sup>١</sup>

و الثاني: أن العدول بالمؤمن من النار الى الجنة أمر واجب على الله تعالى عندكم فلا يجوز حمل اللفظ عليه.

### المعراج الرابع

في ازاحة وهم من يحض الآية بمن كان كافراً حيناً من الدهر ثم أسلم إن ظاهر لفظ ﴿يخرجهم﴾ من الظلمات الى النور يقتضى أنهم كانوا في الكفر، ثم أخرجهم الله من ذلك الكفر الذي عليه في حصّة من الزمان الى الايمان، قال جماعة من

١ . تفسير الرازى، ج ٧، ص ٢٠؛ تفسير الثعلبى، ج ٢، ص ٢٣٧

المفسرين: «إن الآية مختصة بمن كانوا من الكافرين ثم قبلوا دعوة الاسلام» وهم ذكروا في سبب النزول روايات:

احداها: قال مجاهد: «هذه الآية نزلت في قوم آمنوا بعيسى عليه السلام و قوم كفروا به، فلما بعث الله محمداً عليه السلام آمن به من كفر بعيسى عليه السلام، و كفر به من آمن بعيسى عليه السلام». و ثانيها: أن الآية نزلت في قوم آمنوا بعيسى عليه السلام على طريقه النصراني، ثم آمنوا بعده بمحمد عليه السلام فكان ايمانهم بعيسى عليه السلام حين آمنوا به ظلماً و كفراً؛ لأن القول بالاتحاد كفر، و الله تعالى أخرجهم من تلك الظلمات الى نور الاسلام.

و ثالثها: أن الآية نزلت في كل كافر أسلم بمحمد عليه السلام. و هذا التخصيص غير لازم، بل الأولى أن يحمل اللفظ على كل من آمن بالله و بمحمد عليه السلام و بما جاء به - سواء كان ذلك الايمان بعد الكفر بعدية زمانية أو لم يكن - و تقريره حسبما أشرنا اليه أنه لا يبعد أن يقال: «يخرجهم من النور الى الظلمات» و إن لم يكونوا فيها ألبتة، و يدل على هذا الجواز النقل و العقل:

أما النقل؛ فيدل عليه القرآن و الخبر و العرف.

أما القرآن؛ فقوله تعالى: ﴿و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ (آل عمران: ٣): (١٠٣) و معلوم أنهم لم يكونوا قط في النار، و قوله: ﴿لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي﴾ (يونس: ٩٦) و ما كان نزل بهم عذاب ألبتة، و قال في قصة يوسف عليه السلام: ﴿تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ (يوسف: ١٢): (٣٧) و لم يكن فيها قط، و قال: ﴿و منهم من يرد الى أرذل العمر﴾ (النحل: ١٦): (٧٠)، و ما كانوا فيه قط.

و أما الخبر؛ فروى أنه عليه السلام سمع انساناً قال: «أشهد أن لا إله إلا الله» فقال: «على الفطرة» فلماً قال: «أشهد أن محمداً رسول الله» فقال: «خرج من النار». و معلومه أنه لم يكن فيها. و روى ايضاً أنه عليه السلام أقبل أصحابه فقال: «تتهافتون في النار تهافت الجراد، و هاأنا آخذ بحجزكم». و معلوم أنهم ما كانوا متهافتين في النار.

و أما العرف؛ فهو أن الأب أنفق كل ماله، فالابن قد يقول له: «قد أخرجتني من مالك» اي: لم تجعل لي فيه شيئاً، لا أنه كان فيه فأخرجه منه.

و أما العقل فالتحقيق فيه كما مران الانسان و ان لم يكن في النار ظاهراً و لم يكن كافراً قط إلا أنه كانت نفسه في أول الفطرة ناقصة في معنى الانسانية، خالية عن الكمالات العلمية

و العملية، و مع ذلك مشارك للحيوانات فى الأغراض الشهوية و الغضبية، بل أنزل رتبة و أضل سبيلا منها فى الدواعى النفسانية، و الميل الى الدنيا و الاخلاص الى الأرض، فان بقى على هذه الحالة التى هى بعينها سبب دخول الجحيم و غضب الجبار، أو نفسها - كما هو عند بعض - فكان على شفير جهنم، فاذا تنوّرت ذاته بالايمان اليقيني و المعارف اليمانية و العمل بمقتضاها فقد حصل له ما هو سبب دخول الجنان و مجاورة الرحمن أو عينها - كما هو عندهم - .

فمعنى هذه الآية و غيرها من النقول المذكورة هو ما ذكرنا، فان العبد لو خلى ساعة من توفيق الله تعالى لوقع فى الظلمات ممّا توجهه الشهوات و غيرها، فصار امداد لطفه و افاضة نوره أنا فأناً سبباً لدفع تلك الظلمات عنه، و بين الدفع و بين الرفع مشابهة، فبهذا الطريق يجوز استعمال الاخراج و الابعاد فى معنى الدفع و الرفع .

### المقالة الثامنة عشرة

فى قوله سبحانه و تعالى : ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات﴾

و فيه مطالع :

### المطلع الأول فى اللفظ

«الطاغوت» بلفظ الواحد والأولياء بلفظ الجمع، ليعلم أن الولاء والمحبة من قبل الكفار للطاغوت لا من قبله لهم، فلو كان من قبله لقال: «وليّهم الطاغوت» أو «الطاغوت وليّهم» وأما ما قرأه الحسن «أولياؤهم الطواغيت» واحتج بقوله تعالى بعده ﴿يخرجونهم من الظلمات الى النور﴾، فهو اسناد مخالف للمصاحف، على أنه قد مرّ أن هذا اللفظ مفرد لا يجمع، ولهذا يقع فى موضع الجمع .

ومن الدلائل على ما حملناه - من كون الأولياء بمعنى المبني للمفعول بعد كون الطاغوت بمعنى الشيطان - قوله تعالى : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (البقرة: ٢) : (١٦٨) وقوله : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ (فاطر: ٣٥) : (٦)، فان كونه عدواً للإنسان جملة ينافى صيرورته ولياً ولو فى بعض الأوقات .

